رواية هذا العدد (١)

القائد الفينيسي

أوبالدو تسياني

نحو سنة ١٥٢٣ عاش في فينيسيا الأمير أوبالدو تسياني وهو شاب بهي الطلعة وضاح الجبين مفتول العضل قوي البنية فطر على التأنق في لباسه واقتناء النفائس النادرة في قصره الفخم وكان ذا ثروة طائلة لا يفنيها الانفاق بسخاء . وكان دوق فينيسيا ومجلس العشرة يعلمون من جواسيسهم ومراقبيهم له أنه لا يتدخل في الشؤون السياسية وأحوال البلاد فأطلقوا له الحرية في تبذير أمواله على اليمين والشمال واقامة الحفلات الراقصة والعيش في

---

(١) اخترنا هذه الرواية التاريخية الحقيقية وفضلناها على الروايات الغرامية لما فيها من العواطف الشريفة علها تكون عبرة للاغنياء الذين يزعمون انهم بالمال وحده يكسبون المجد ويظفرون بالعظمة

القصف والبذخ وكان هو من جبة اخرى لا همّ له الا ابتكار ما يدعو الى الانشراح والتمتع بالملذات والانهماك في المسرات حتى فرغت جعبة لهوه ومتعه وكان مطبوعا على العظمة ميالا الى سماع الفاظ المدح والتعظيم التي كان يكيلها له جزافا المحدقون به من الشبان والغادات الحسان الذين كانوا يتنافسون في مدحه والتغزل بكرمه وجماله سعياً وراء اجتذابه والتزلف اليه

أما قصره الباذخ فكان آية من آيات الفن بني من المرمر الابيض والاحمر وزُخرف بنقوش أثرية غاية في الابداع تطل شرفاته على ترعة وقد فرشه بالرياش الفاخر النفيس من بسط وغارق نادرة وسجف حريرية مطرزة بخيوط الذهب والفضة الى غير ذلك من التحف والطرف واذا ما حلّ المساء كان القصر يزدحم بامراء فينيسيا وعظمائها مع زوجاتهم وبناتهم واذا ما التأم شملهم قضوا ليلتهم بالرقص على أنغام الموسيقى وتناول ما لذ وطاب من أنواع المأكول والمشروب واحياناً يجلسون وراء الموائد الخضراء يقامرون . وكان الأمير أوبالدو يقضي بعض لياليه في منازل أصدقائه واذا خرج من قصره يسير محفوفا برجال بطانته حتى ما كان يقل موكبه عن مواكب الملوك والأمراء وكان عدد من الخدم يسير أمام الموكب يمنعون الفقراء من الدنو منه حتى لا يزعجوه بتوسلاتهم والحاحهم

وفي ذات ليلة شعر بانقباض نفس وكآبة فعزم على الذهاب الى منزل الغادة الحسناء مونا ماليا ليزيل الى جانبها ما علق بنفسه من الهم والغم وعزم ان يسير اليها ماشياً منفرداً بدون حاشية فخرج من باب الخدم منفرداً وسار حتى وصل ساحة بياتسيت ولما توسطها وجه اليه التفات عشرات من الفقراء الذين كانوا يتسولون ولكنهم لم يجسروا ان يدنوا منه بل كانوا ينحنون أمامه باحترام غير ان عجوزاً منهم أحنت ظهرها الايام دفعتها جرأتها الى الدنو منه وطلبت منه احساناً . ولما وقع نظره عليها تأثر تأثراً شديداً لعلامات الحزن والتعاسة المرسومة على وجهها ومس منظرها المؤلم صميم فؤاده فارتعش كعصفور بلله القطر وعلم انه لم يكن يحمل مالا نزع ماسة نفيسة من تلك الحجارة التي يزدان بها رداءه ووضعها في يد العجوز فدهشت هذه واضطربت لهذا السخاء وظنت انه أخطأ أو انه يسخر منها فلحظ منها ذلك وقال لها :

ثقي يا امرأة أني وهبتك هذه الماسة فهي لك وتصرفي بها كما تريدين واذ ذاك ألقت عليه نظرة حادة وخاطبته بلسان خنقته دموع الشكر : انك رجل صالح طيب يا أوبالدو ! فتأثر لدى سماعه هذه العبارة التي مست حواسه وجوارحه وعدها أسمى من جميع ألفاظ المدح التي كان يزفها له أعوانه واصدقاؤه وارتسمت على لوح فؤاده بأحرف من نار ثم سار لا يلوي على شيء

— ٢ —

لحظت الحسناء مونا ماليا في هذه الليلة أن ضيفها حزين مغموم مشتت الافكار على خلاف عادته فقالت له : ماذا جرى لك يا سنيور أوبالدو ؟ ومالي أراك هكذا حزيناً كئيباً ؟ وماذا ينقصك في هذه الحياة ! لقد توفرت لك جميع أسباب السعادة من غنى ومجد وسؤدد وجمال وأجمع الجميع على حبك واحترامك

— فقال لها ولمَ يحبونني ويحترمونني أيتها الحسناء ؟

لمَ يحبونك؟ الامر ظاهر جلي ... يحبونك لانك : غني وجميل وشجاع وسخي وجيادك خير جياد في فينيسيا وسيفك أجمل سيف حتى قالوا عنك بحق لا فتى الا أوبالدو ولا سيف الا سيفه الصقيل . ثم انك أمهر راقص في المدينة وأجمل شاب فيها . ترتدي أفخر الثياب وأنفسها وأصرح لك أن غادات فينيسيا لدى رؤيتك والاستنارة بمحياك تخفق أفئدتهن اعتماشاً وغراماً وحباً وماذا تريد أكثر من هذا أيها الامير !

فأجابها بقوله : لقد كنت لي المدح جزافاً وكررت على مسامعي عبارات المدح بدون حساب تلك العبارات التي اعتدت سماعها وما عدت أتأثر منها ولكن في هذه الليلة سمعت في طريقي كلمة ارتاحت لها نفسي أكثر من جميع ألفاظ المدح المنمقة فهل تستطيعين أن تقولي ماهي تلك الكلمة ؟ فكري فكري وقولي :

— فقالت له : اني لا أرجم بالغيب وفوق هذا فلم اترك في جعبتي كلمة مدح أو ثناء الا وأفرغتها في أذنيك

فتنهد وقال : لا تتعبي نفسك عبثاً أنني كنت أحب أن أسمع منك كلمة واحدة وهي اني « صالح طيب »

فضحكت مونا وقالت: ان الصلاح يامسيو لامعنى ولاقيمة له لأمير عظيم مثلك

فلم يعر أوبالدو فلسفة محدثته التفاتاً بل سألها قائلا: وهل لاتعتقدين اني صالح ذو عواطف شريفة!

ولما رأت انه لايزح في كلامه غيرت سياق الحديث وقالت: وهل يوجدشك أيها الامير في صلاحك وطيبة قلبك واذا كنت تجد في ذلك ارتياحاً أو كنت تظن أن الصلاح أسمى الصفات فما لاريب فيه أنك صالح وطيب وشهم. ولكني مع هذا أسألك أيها الصديق. بأي شيء تستطيع هذه اللفظة المتواضعة تزيين حياتك وجلب الانشراح لنفسك وهل يخطر على بال أشد الناس حماقة أن يمدحك بمثل هذه اللفظة!! ان هذا أمر غريب مدهش!! ومن يأترى ذلك الاحمق السخيف الذي وجه لك هذه اللفظة

فأجابها فوراً . . . امرأة فقيرة عجوز في ساحة بياتسيت

فقهقهت الحسناء حتى بدت نواجذها وقالت بصوت متهدج مضطرب: وأظن انك كافأتها على ذلك بقبضة من الذهب. واذا كان الصلاح يكون بنثر الذهب فعد حالا الى تلك الساحة وانثر على الفقراء بدرات الذهب فانهم يقيمون لك مظاهرة عظمى ويهتفون بأعلى أصواتهم: انك صالح كريم

واذ رأى غضب مونا الحسناء نهض وودعها وخرج وفي الطريق كان يحدث نفسه: انني لا أعرف عن نفسي شيئاً والناس المحدقون بي لايوجهون الي غير ألفاظ التملق والمدح الفارغ. فكيف أستطيع معرفة صحة ماقالته لي تلك العجوز الفقيرة

— ٣ —

شغلت تلك العبارة أفكار أوبالدو طول اليوم التالي وفي كل دقيقة كانت ترن في أذنيه عبارة العجوز فتسبب له انتعاشاً داخلياً ومن جهة أخرى كانت ترن في اذنيه عبارات الحسناء مونا فتزعجه. وعند المساء خرج وحده الى ساحة بياتسيت وطاف بعض الشوارع المحدقة بها علّه يصادفه تلك العجوز فلم يقف لها على أثر فزعم انها باعت الملسة وتحسنت حالتها فلم تعد تخرج للتسول ولذلك فانه لايستطيع معرفة هل

أنها قالت له تلك العبارة من صميم فؤادها أو من باب التملق والرياء . ثم عاد الى الساحة ووزع على الفقراء دنانير كثيرة ولكنه لم يجد في الفاظ شكرهم تلك القوة المعنوية المؤثرة التي رآها في عبارة العجوز فعاد الى منزله آسفاً وقال ان هذه الافكار السخيفة حالت بينه وبين ملاهيه وملذاته

وفي ذات ليلة قصد منزل صديق له لحضور ليلة راقصة وفي الطريق شعر ان يداً لمسته فالتفت فرأى تلك العجوز التي بحث عنها عبثاً والى جانبها امرأة حديثة السن مرتدية ملابس رثة شاحبة الوجه صفراء فقال للعجوز بلطف ودعة : ادني مني واطلبي ما تريدين فاني مستعد لمساعدتك . انني غني وقد منحتك مائة ثمينة لاقيمة لها في نظري وصدقت ماقلته لي بأني صالح . فهل انا صالح طيب حقيقة أم انك قلت ذلك من باب التملق والرياء

فصمتت العجوز برهة ثم القت عليه نظرة من عينيها السوداوين وقالت بهدوء وسكينة حقاً انك صالح طيب ياسنيور أوبالدو

فشعر كما شعر في المرة الاولى بارتياح نفساني وانتعاش ثم التفتت العجوز الى رفيقتها وقالت لها : هذا هو الشخص الوحيد الذي يستطيع انقاذك من مصيبتك فادني منه وقصي عليه قصتك . فتشجعت المرأة وقالت متوسلة : ان زوجي صياد سمك ولا يكاد شغله اليومي يقوم باعالة أولاده الثلاثة . وبمناسبة هجوم الاتراك قرر مجلس العشرة تجنيد المجنود وزوجي بحري وصدر له الامر بالحضور صباح الغد الى المركب مع البحارة أو يحضر شخصاً آخر يحل محله . وبما ان هذه الحملة خطرة فاننا لم نجد من يحل محل زوجي المدعو بيمبو ماريني فضلاً عن ان كثيرين فروا من الجندية واذا سافر زوجي فاني وأولادي نموت جوعاً

فقال لها أوبالدو : اوجدي بدلا عنه وأنا بكل سرور ادفع له أجره مهما كان عظيما فهزت الفقيرة رأسها وقالت ان جميع جيراننا فقراء مثلنا وفوق هذا فلا أظن ان أماً أو زوجة أو اختا توافق على ذهاب ابنها أو زوجها الى هذه الحرب الطاحنة ولم يبق أمامنا متسع من الوقت لأن زوجي يجب ان يكون صباح الغد على ظهر البارجة وما أستطيع أن افعله في ليلة واحدة؟ وليست ثمت من طريقة الا أن تسعى أيها

الامير بنفوذك لدى مجلس العشرة لاستثناء زوجي وعدم ارساله مع هذه الحملة .

فاضطرب لدى سماعه ذلك لعلمه أن تدخله في شؤون البلاد السياسية يجر عليه عواقب وخيمة ويعرضه لانتقاد الحكام ولكنه بعد تفكير عميق قال لتلك المرأة : كفكفي دموعك أيتها السيدة وثقي بأني سأبذل كل مجهوداتي لانقاذ زوجك فاذهبي بسلام واعتمدي علي وذهب مسرعا دون أن يسمع كلمات الشكر التي لفظتها المرأة والعجوز الواقفة بجانبها وقصد من ساعته منزل السنيور دوناتو جرماني عضو مجلس الشيوخ وصديق أسرته القديم

وعند أول كلمة فاه بها الأمير رفع الشيخ حاجبيه وقبض على لحيته البيضاء وما أنهى له أوبالدو قصة الجندي حتى اضطرب وقال بصوت ملؤه الغضب : انك يا أوبالدو ارتكبت خطأ شنيعاً بتدخلك في مثل هذه المسألة الخطيرة واعلم أن هذا التجنيد قرره مجلس العشرة لارسال حملة ضد الاتراك واستثناء جندي واحد يدعو الى القال والقيل بين الشعب فضلا عن انه يثبط العزائم . واني أنصح لك أن تظل في ملاهيك وملذاتك وتشتري بمالك ما تشاء من الجارية الكريمة والنفائس وتعاشر الغادات الحسان وتعاقر بنت الدنان ولا تنفق قرشاً واحداً على هؤلاء الفقراء ولا تحل دون وجود بيمبو ماريني على ظهر البارجة في صباح الغد

ان نصيحة الشيخ زعزعت عزم أوبالدو فخرج من عنده وفي الطريق ذكر العجوز والمرأة البائسة فأسرع الخطى حتى بلغ قصره حيث جمع خدمه وعرض عليهم ان يحل أحدهم محل ذلك الجندي الصياد وانه يدفع لمن يقوم بهذه المهمة الف دينار ذهب واذا كان المبلغ قليلا فانه يوصله الى خمسة آلاف دينار . فلم يجب طلبه أحد وقال واحد جريء منهم انني بخدمتي لك أيها الامير استطيع اكتساب مثل هذا المبلغ بسهولة . فاحتدم الامير غيظاً وارتدى عباءته وسار من ساعته الى ميناء « سان نقولا »

فوجد موظف وزارة الحربية جالساً وراء مكتب تكدست عليه الاوراق وقد أحدق به عدة من الجنود وجمهور من الناس لا يحصى عدده فاخترق الامير ذلك الجمع حتى وقف أمام الموظف ورأى الى جانبه زوجة بيمبو تبكي بدموع سخينة

وما رأت الامير صاحت صيحة الفرح والسرور وقالت للموظف لا تكتب اسم بيمبو مارينى مع الجنديين لأن الامير أوبالدو نسياني سيقول لك كلمة بشأنه ثم رأت آيات الحزن العميق مرسومة على وجه أوبالدو فتوقعت شراً وعلت وجهها صفرة الموت بحيث أن الامير أدار وجهه عنها وفي هذه اللحظة تقابلت عيناه بعيني عجوزنا المعلمة فقرأ فيهما كلمات الرجاء والاستعطاف فانتفض وارتعش وفي هذه اللحظة سمع الموظف ينادي اسم بيمبو مارينى واذ ذاك دنا الامير من مكتب الموظف واتكأ عليه بكلتا يديه وخاطبه بقوله : أرجوك أيها الموظف ان تمحو اسم بيمبو روماني من قائمة المجندين واكتب اسمي بدله

ارجو كتابة اسمي بدل بيمبو

فبهت الموظف لدى سماعه ذلك وظهرت على وجهه أمارات الذهول الأمر الذي سر الأمير حتى قبله ضاحكا وكرر عليه كلماته ذاتها وشفعها بقوله : ألا تعلم انني أبتكر ما اتلاهى به وقد خطر على بالي اليوم أن أذهب لمداعبة الاتراك ومحاربتهم وما أتم كلامه حتى ولى وجهه شطر البحر وصعد على ظهر البارجة وانتظم في سلك المجندين

— ٤ —

ان اقدام أوبالدو على التطوع في الجندية قوبل من الحكومة والرأي العام بمزيد الاعجاب ولا سيما من حسان فينيسيا الفاتنات اللاتي وجدن في عمله منتهى الشهامة والشجاعة والعواطف الشريفة ولهجت ألسنتهن بمدحه والثناء عليه وعطرن المحافل بذكر صنعه المجيد فدب ذلك الحماس في نفوس الشبان الأمراء وأبناء الاعيان فحذوا حذوه وتبرع كثيرون ببوارج حربية ونفقاتها وما هي الا أيام معدودة حتى أصبح الأسطول الفينيسي كثير العدد والعدد ولما حانت الساعة أقلع بين أصوات الهتاف والحماس ولما تقابل بالأسطول التركي هجم الأتراك غير مكترثين بالأعداء

ولكن البوارج الحربية الفينيسية أحدقت بالأسطول التركي وكسرته كسرة شنيعة الأمر الذي سر له أوبالدو سروراً عظيما ومن جهة أخرى أن عيشته الجديدة وهواء البحر والعمل طول النهار كل ذلك أنعش جسمه ودب فيه روح النشاط ولما طبع عليه من دماثة الأخلاق والتواضع استطاع أن يجذب اليه قلوب البحارة فأحبوه وفي أثناء تشوب المعركة مع الاتراك أظهر بسالة كادت هامته بالمجد والفخار

ومن حسن حظه أن الغنائم التي اكتسبوها من الاتراك شحنت على بارجته وصدر لها الأمر بالعودة الى فينيسيا فرقص فؤاده طربا لهذا النبأ وقال في نفسه أنه سيتمتع بالراحة في قصره بعد ماقاساه من أهوال الحرب

وبعد أسبوع رست البارجة في ميناء فينيسيا وخرج منها أوبالدو وكثيرون من الأمراء ولكن ما كان أشد دهشتهم عندما لم يصادفوا أحداً يستقبلهم بالحفاوة والاكرام وكانوا يتوقعون أن الحكومة والشعب يستقبلهم بالهتاف والتهليل وكان أوبالدو يتوقع أن يرى على رصيف الميناء بيمبو ماريني وزوجته والعجوز ولكنه لم ير أحداً منهم واذ ذاك سار مسرعا الى قصره مدهوشاً من هدوء المدينة وسكونها ومن علامات الكدر البادية على وجوه الذين يصادفهم في طريقه وما دخل باب القصر حتى قابله خدمه بوجوه شاحبة مروعة وبادروا الى اخباره : بأن المدن المجاورة لفينيسيا وهي : فيرونا وتريست وفيتشينتسو وبادو ظهر فيها الطاعون وفتك بأهلها فتكا ذريعاً وان مجلس العشرة قرر ضرب نطاق صحي وقاية للعاصمة من ذلك الوباء الفتاك ولا يسمح لقادم من تلك المدن بدخول فينيسيا . فاستولى خوف عظيم على الامير أوبالدو الذي كان في شدة الاحتياج الى الراحة فعاد ادراجه وخرج من القصر وقصد منزل دوناتو جريماني ليتحقق منه مكان رواية خدمه من الصدق وما كاد يقفل وراءه باب القصر حتى دنت منه سيدتان احداهما أسدلت على وجهها نقاباً والاخرى فتاة في نحو الخامسة عشرة من عمرها وقالتا بصوت عال هذا هو الأمير اوبالدو ودنت منه الفتاة وسجدت أمامه وسيول الدموع الساخنة تنهال من عينيها وقصت على مسامعه ما يأتي :

انها قدمت بالأمس مع والدها الشيخ الى فينيسيا من فوتشينا قبل صدور قرار

مجلس العشرة بضرب النطاق الصحي يوم واحد وان والدها مرض مرضاً شديداً وأصيب بحمى خبيثة وقيء متواصل وغطت جسمه بقع سوداء ثم مات وفي الغالب أنه أصيب بالطاعون ولذلك رفض كل الناس مساعدة الفتاة المسكينة على نقله الى بلده والآن أتوسل اليك أن تساعدني على نقل والدي الميت على مركب الى وطنه ليدفنه اباؤه

فلما سمع أوبالدو رواية الفتاة اضطرب وحسب حساب العدوى فبادر وقال لها : وما شأني أنا وهذا الامر ؟ ولماذا لم تطلبي من غيري هذا الطلب ؟ واذا كان والدك مات بالطاعون فهل تريدين أن تسري العدوى منه اليَّ تلك العدوى التي يتجنبها كل انسان

واذ ذاك تقدمت السيدة المنقبة ورفعت النقاب عن وجهها وقالت : ذلك لأنه لا يوجد في فينيسيا كلها سوى الامير أوبالدو يدفعه فؤاده الى افعال المروءة والشهامة وما كانت تلك المرأة غير العجوز المعلومة التي أثرت نظرتها في فؤاده التأثير المطلوب ونزعت منه كل تردد فقال للفتاة اصعدي الى أحد هذه المراكب لانها جميعها لي وأرشديني الى المكان الموجودة فيه جثة والدك ثم صعد الى المركب وراء المرأتين وجعل يجذف والزورق يسير في الترعة الى أن بلغوا أحدى ضواحي المدينة

وهنا وقف أوبالدو مفكراً برهة ثم اقتطع رقعة من مفكرته وكتب على نور المصباح عدة أسطر للشيخ دوناتو جريماني اخبره بها بما عزم على فعله ورجاه أن يخبر بذلك مجلس العشرة وان يرسل له الى مدينة فوتشينا يخبره بقرار المجلس عن المكان الذي يجب عليه فيه أن يقضي مدة الحجر الصحي ثم دفع الرقعة للعجوز وطلب اليها أن توصلها للشيخ بنفسها ثم سار وراء الفتاة وسط الظلام الحالك الى أن دخلا الغرفة الموجودة فيها جثة والدها وقد أخذت في التعفن ودون أن يفكر بنفسه حمل الجثة الى الزورق ووضعها على بساط وغطاها بعباءته وجلست الفتاة في مؤخر السفينة وطفق الامير يجذف حتى خرج بالسفينة الى عرض البحر ولبث طول الليل يكابد أشق الأهوال والتعب وعندما لاح الفجر أبصر الشاطئ وأشارت الفتاة الى المكان الذي يجب أن يخرجا منه الى البر ثم قفزت وسارت مسرعة ثم عادت بعد برهة مع

اقاربها الذين حملوا اخته ووضعوها فوق نقالة . ثم دنت الفتاة وتناولت يد اوبالدو وطبعت عليها قبلة حارة علامة الشكر

لبث اوبالدو وحده في السفينة وما عتم حتى رأى سفينة على ظهر البحر تسير نحوه ولما دنت من سفينته وقف أحد أعضاء مجلس العشرة ورمى له غلافاً مقفلا ثم قفل راجعاً من حيث أتى .

ولما فض الغلاف وجد فيه رسالة من الشيخ جريماني يؤنبه بها تأنيب الأب لابنه على تعريض نفسه للخطر ووجد أمراً رسمياً من مجلس العشرة يأمره به بالذهاب الى جزيرة سان كليمنتو والمكوث فيها ريثما يصدر له أمر آخر بالعودة الى فينيسيا على سفينة خاصة ترسلها له الحكومة فيما اذا لم يمت قبل ذلك

— ٥ —

ومن حسن حظه ان العدوى لم تسر اليه من المتوفى بل شعر في الجزيرة بصحة لم يعهدها من ذي قبل وبعد مرور ٤٢ يوماً جاءته رسالة تنبئه بانه بعد يوم تصل سفينة الحكومة ليرجع عليها الى فينيسيا فوقع هذا النبأ في نفسه موقع السرور والانشراح وما لاح الفجر حتى سار الى الميناء حيث جعل يفروغ صبر ينتظر السفينة وكان يسير ذهاباً وأيابا وينظر الى البحر واخيراً رآها تتهادى على سطح البحر كأنها العروس ليلة الزفاف ورأى علم الحكومة الرسمي مرفوعا عليها ومرسوما عليه الاسد الادرياتيكي ورفعت على مؤخرها مظلة من البرفير عليها شعار فينيسيا ثم سمع اصوات الموسيقى الشجية تتصاعد من السفينة ورأى سفنا عديده تحدق بسفينة الحكومة

وقد تعالت منها أصوات التهليل وهتاف السرور وتخفق فوقها الأعلام خفقات الانشراح ولما التمت السفينة مرسلها صعد اليها أوبالدو مسرعا فقوبل مقابلة حماسية لم تخطر له ببال وحمله جمهور الشبان على الايدي حتى اوصلوه الى المظلة فرأى الدوق حاكم فينيسيا جالساً تحتها والى جانبه زوجته الحسناء والى جانبها صديقه الشيخ دوناتو جريماني ورأى كثيرين من اصدقائه وعدداً كبيراً من حسان فينيسيا فجلس على كرسي مذهب اعدوه له بجانب كرسي الدوق وجعلوا كلهم يسألونه أسئلة مختلفة ثم وقف الدوق والقى الخطبة الآتية

حضرت بنفسي لمقابلتك أيها الامير أوبالدو على ظهر سفينة الحكومة برفق زوجتي الشريفة وأمراء فينيسيا وأشرافها وكرائم سيداتها لتعرب لك جميعنا عن شكر واحترام فينيسيا . انك قبل كل شيء قدمت نفسك في ساعة الخطر للدفاع عن الوطن ومحاربة اعدائه وان عملك هذا المجيد دعا كثيرين من الامراء أن يحذوا حذوك ويتركوا قصورهم الفخمة وما فيها من ملاه وملذات ولقد أنقذتم جميعكم وأنت على رأسهم الوطن من الاعداء وأحرزتم بذلك مجداً يدوم الى الابد . وقد أضفت الى مجدك هذا مجداً آخر باقدامك على الخطر وحملك الميت المغطى جسمه ببقع الطاعون وايصاله الى وطنه ليدفن فيه . اني باسم فينيسيا اهنئك واشكرك وما أنهى خطبته هذه حتى صفق الحاضرون تصفيقاً متواصلا وصدحت الموسيقى بانغامها الشجية وكان الامراء واعضاء مجلس العشرة والعقائل يراقبون تأثير هذه الخطبة على اوبالدو وما كان أشد دهشهم عندما رأوا تواضعه ودموعه ولم تبد عليه علامات الكبر والاعجاب

ثم احاطت به السيدات احاطة الهالة للقمر وجعلن يحادثنه باطايب الاحاديث وقلن له بلسان واحد : لاريب انك فعلت ما فعلت بتأثير احدى الحسان عليك لتكسب ودها . وقالت الدوقة بدورها : حقاً ان الذي يعرف سيرتك السابق وعيشك في رياض البذخ واللهو لا يظن مطلقا انك تقدم على هذه الاعمال المجيدة وتحرز هذه المكانة السامية في القلوب الا بتأثير سيدة على عواطفك فدفعتك بقوة الى ذلك وان رأينا كلنا اجمع على هذا

فابتسم أوبالدو ابتسامة المكر والرياء وأجاب السيدات بقوله : لم تخدعكن فراستكن والحق يقال ان امرأة دفعتني بتأثيرها عليّ الى القيام بهذه الاعمال التي أبلغتني قمة الشرف والسعادة والمجد وسنصل قريبا الى فينيسيا وعند ما ننزل الى الشاطيء أرجو ان أراها هناك واذ ذاك أتقدم اليها امام الجمهور وارفع قبعتي عن رأسي وأقبل يدها اعرابا عما يكنه لها فؤادي من الاجلال والاحترام واذ ذاك تعرفنها . فتبادلت السيدات النظرات وأخذن معرفة اسم تلك العادة التي خلبت لب هذا البطل الغريب الاطوار وعندما القت السفينة مرساتها شرفت الدوقة اوبالدو بتقديم يدها

اليه لكي ينزلها من السفينة . وسار بعد ذلك الموكب باحتفال عظيم ولما بلغ ساحة بياتسيت وكاد يقرب من قصر القائد أوبالدو كان نظره يبحث بين الجماهير عن شخص معين وزعمت السيدات أنه سخر بهن لانه لم يرهن تلك العادة ولكنه في هذه اللحظة رأى تلك العجوز المعبودة ورأى نور الاخلاص والسرور يشع من عينيها رآها بين جمهور الفقراء الذين كان رجال الشرطة يدفعونهم عن الطريق فاستوقفهم اوبالدو وتقدم بخطى ثابتة نحو تلك العجوز فكاد يغمى على الدوقة عند مارأته على رؤوس أهالي فينيسيا وحاكمها وأشرافها يرفع قبعته عن رأسه ويركع أمام عجوز فقيرة بيّض الدهر شعرها وقد اضطربت تلك المسكينة لدى رؤياها هذا المشهد فتراجعت الى الوراء غير أن أوبالدو تناول يدها بلطف وطبع عليها قبلة ثم نهض والتفت الى ذلك الجمهور وخاطبه بصوته العذب الرنان بقوله : « فليضحك علينا ويهزأ بنا أولئك الذين لا يفهمون ولا يدركون . ولكني أباركك واشكرك أيتها المرأة لأنك استطعت بنظراتك الحادة اختراق أعماق قلبي — استطعت بكلمات الحب والاخلاص والطهارة اخراجي من ظلمة الغرور واخرجتني من قبر حب الذات والفجور الى عالم الفضيلة »

فأثرت كلماته هذه في نفوس السامعين وأمر حاكم المدينة بعد ذلك أن يكتب تاريخ أوبالدو تسياني ويحفظ في مستودع الاوراق الرسمية ليكون عبرة وعظة لجميع الذين يطالعونه في الحال والاستقبال

وقبل أوبالدو يدها